

فضاءات التهميش في شعر الصعاليك

The Spaces of Marginalization in the Poetry of Outcasts

الباحثة: ضياء عبد الرزاق الشيخ

معهد الدوحة للدراسات العليا - قطر

daodia44@gmail.com

المشرف: د. أيمن الدسوقي

تاريخ النشر: 2024/09/30

تاريخ القبول: 2024/09/06

تاريخ الاستلام: 2024/06/25

ملخص:

تعدّ فكرة التهميش من الأفكار التي أنتجتها الطبيعة الاجتماعية والسياسية في مختلف العصور، فلهذه الفكرة جذور تشعبت وامتدت لتصل إلى مجال الدراسات الأدبية، فكلمة التهميش أو الهامش تحيلنا في سياق الأدب العربي إلى تلك الفئة المهمّشة فئة الصعاليك التي رزحت تحت وطأة القمع والقهر والنبذ، ويهدف البحث إلى الكشف عن العلاقة أو الرابط بين التهميش وظاهرة الصعلكة، وفتح آفاق وتساؤلات وثيقة الصلة، نحو: هل يدخل الشعر الذي أنتجته القريحة الشعرية الصعلوكية في مضمار أدب الهامش أم أدب المركز؟ هل كان التابع حين تحدّث طلائعياً أم مارقاً؟ هل يمكن للتهميش أن يحمل بين طياته جوانب إيجابية؟ وما التطور الذي طرأ على مفهوم التهميش في العصر الحديث؟ وما تجلياته في الأدب الحديث والمعاصر؟

كلمات مفتاحية: الهامش، المركز، الصعلوك، المنظومة السائدة، العقد الاجتماعي.

summary

The concept of marginalization is one that has been generated by social and political dynamics throughout various eras. This idea has branched out and extended into the field of literary studies. The term "marginalization" or "marginality" in the context of Arabic literature refers to that marginalized category, specifically the "outcasts" who have suffered under oppression, repression, and exclusion. This research aims to uncover the relationship or link between marginalization and the phenomenon of the "outcast," opening up perspectives and pertinent questions such as: Does poetry produced by the poetic voice of the outcasts fall under the realm of marginal literature or central literature? Was the poet a conformist or a rebel when speaking innovatively? Can marginalization carry positive aspects within its folds? What developments have occurred in the concept of marginalization in the modern era? And what are its manifestations in modern and contemporary literature?

Keywords: marginalization, centrality, outcasts, dominant system, social contract.

مقدمة:

إنّ فكرة التهميش ليست وليدة العصر الحالي، بل هي قديمة و متجدّرة في مختلف الحضارات عبر سياقها التاريخي، ذلك أنّ أفكار القمع والقهر التي تحدّثت عنها البشرية تشير ضمناً إلى التهميش، هذه الفكرة التي نجد لها تشعّباتٍ وامتدادات تصل إلى مجال الدراسات الأدبية، ففي الأدب العربي لا نعدم وجود تمثيلاتٍ لعوالم الهامش أنتجتها الطبيعة الاجتماعية أو السياسية، وربما أول من يتبادر إلى ذهننا في هذا السياق هم تلك الفئة المهمّشة، فئة الصعاليك، فكلمة التهميش في إطار الأدب تحيلنا إلى ظاهرة اجتماعية أدبية هي ظاهرة الصعلكة، ولنا أن نسأل هنا ما الرابط بين التهميش والصعلكة، للإجابة عن هذه الإشكالية اتبع البحث المنهج الوصفي من خلال الوقوف عند بعض المفاهيم المتعلقة بالهامش والتهميش والصعاليك ومعنى الصعلكة، وهذه مفاهيم لا بدّ لنا من الوقوف عندها كنقاطٍ أساسيةٍ تعيننا في البحث، كما اعتمد البحث المنهج التحليلي من خلال تحليل بعض النصوص التي أنتجتها القريحة الصعلوكية.

تنبع أهمية هذه الدراسة فضاءات التهميش في شعر الصعاليك، في بيان مدى سطوة التهميش على النفوس وقدرته على خلق مجتمع آخر متمرّد على العقد الاجتماعي في المجتمع الأم، ونشوء مجتمعات موازية تسعى لأن تكون في متن الحياة ومركزها، ومدى انعكاس ذلك كلّه في الأدب الصعلوكي وامتداده إلى العصور الأدبية اللاحقة.

التهميش لغةً واصطلاحاً، المهمّش:

التهميش لغةً: جاء في لسان العرب، همش: الهمشُ، الكلامُ والحركةُ وهمشَ القومَ وامرأةَ همّشَى الحديدِ: تكثّر الكلام وتُجَلِّب، والهمش كثرة الكلام في غير صواب، يقال: همشوا بكلمٍ غير حسن¹.

ويضيف صاحب القاموس المحيط معني: الهامش، حاشية الكتاب.²

واصطلاحاً: يطلق التهميش بصفة عامّة على كلّ منبوذٍ وتمرّدٍ ومتجاوزٍ لسلطة المركز³، وذهب (ألين) إلى أنّ هذا المفهوم يتمّ استخدامه في أجزاءٍ واسعة من العالم ليعبّر عن التمييز والإقصاء الاجتماعي⁴، وتضيف (أديتيا) بأنّ الإقصاء أو التهميش هو العملية الاجتماعية التي يتمّ بها تهميش الأفراد وبخاصة تهميش جماعة ما في مجتمع أكبر، كإقصاء الطبقة الدنيا مثلاً⁵

والمهمّش: هو من يُقصى بشكلٍ متعمّدٍ من نسقٍ إنسانيّ اجتماعيّ غالبٍ، ومهيمنٍ على الفضاء الزمانيّ والمكانيّ الذي يتحرّك فيه الفرد⁶.

نتبيّن من التعريفات السابقة: أنّ التهميش بمعناه اللغوي يعني الثثرة والكلام غير المجدي والخارج عن المتن، وبمعناه الاصطلاحيّ يعني النبذ والإقصاء الاجتماعي لفرد أو فئة من جهة سلطوية تدعى المركز، فالمعنيان اللغوي والاصطلاحي يوحيان لنا بالدونية وقلة الشأن والوضاعة.

مفهوم الصعلكة:

جاء في لسان العرب⁷: الصعلوك: الفقير الذي لا مال له ولا اعتماد، وتصعلك الرجل إذا كان كذلك، قال حاتم الطائي:

غنيّنا زماناً بالتصعلك والغنى
فكلاً سقانا بكأسهما الدهرُ
فما زادنا بغياً على ذي قرابةٍ
غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ

وتصعلكت الإبل: خرجت أوبارها وانجردت، ويقال أيضاً: تصعلكت الإبل إذا دقت قوائمها من السّمْن، والتصعلك: الفقر، ومصعلك الرأس: أي صغيره وضامره.

ويتبدى المعنى العُرفي للصعلكة بتعريف صاحب الجمهرة لها بقوله: " والصعلوك الفقير، وهو أيضاً المتجرّد للغارات"⁸ وتعريف الباحث خليف لها بأنها " الغزو والإغارة للسلب والنهب"⁹.

نتبين من التعريف السابق أنّ: لفظ الصعلكة يدلّ على الفقر والحاجة، هذه الحاجة دفعت بأصحابها إلى سلوك قائم على السلب والإغارة.
من هم الصعاليك وما الذي دفعهم إلى الصعلكة؟
التهميش وتجلياته

الصعاليك فئة خاصّة تتميز بطابع خاصّ ارتبطت نشأتهم بالعصر الجاهلي لظروفٍ نابعة من حياة ذاك العصر لعلّ أهمّ تلك الظروف، الفقر الذي أدّت إليه عواملٌ عدّة نذكر منها: حياة القبيلة التي كانت تقوم على النظام الإقطاعي إذ يستأثر السادة بالثروة وتعيش بقية الطبقات مستخدمة مهمّشة، فهذه الطبقات المهمّشة نُبذت لفقرها أولاً أو لنقل لأنّها لم تقتل لقمّتها وحقّها من فكّ المجتمع الجاهلي الذي لا حياة فيه إلا للقوي، وسبب أساسيّ لمثل هذا النبذ وهو أنّ العرب بالغت في ذكر حسبها ونسبها وإيثار فردٍ على آخرٍ وقبيلة على أخرى بناءً على هذا الأساس، وعليه فإنّ كلّ فقيرٍ وكلٍّ وضعٍ من ناحية النّسب يتمّ تصنيفه في فئةٍ يمكن أن نسمّيها فئة المهمّشين فئة الطبقة الدنيا التي عانت الجور من غير ما إثم سوى الفقر و التفرّع من بطنٍ في عرف المجتمع الجاهلي وضعٍ، وأمام هذه الحال من غير المستبعد أن تثور جماعة لترفض هذا الواقع وتتمرد عليه وتصرخ في وجه المجتمع الذي أحلّ لنفسه تقسيم الخيرات وتصنيف الناس كما يحلو له، ومن يرفض هذه التقسيمات والتقاليد فمصيره الإقصاء وهذا ما حدث فعلاً مع جماعة من الصعاليك إذ تعرّضوا للنبذ والإبعاد، فنراهم على ثلاث طبقات¹⁰: طبقة

الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائمهم كحاجز الأزدي، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود كالشَّنْفري، ومجموعة احترفت الصعلكة احترافاً كعروة بن الورد وصعاليك قبيلتي هذيل وفهم.

وكهم يجمع بينهم الفقر والتشرد والتمرد على النظام القبلي، والإيمان بأن الحق للقوة في محاولة نائرة لتحقيق العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي.

نخلصُ ممّا سبق إلى القول بأنّ فكرة التهميش ترتبط أيّما ارتباط بالصعلكة وذلك أنّ التهميش في السياق الاجتماعيّ يعني النّبذ أو الإقصاء والصعلكة ظاهرة اجتماعية ناتجة عن هذا النّبذ، وفي كلتا الحالتين هنالك سلطة مركزية سمحت لنفسها بالتمييز بين من يكون في دائرة الفعل والاستقطاب وبين من يدور في فلك الاقرار واللافعال، وهذه السلطة في حياة المجتمع الجاهليّ هي من سيّد نفسه في القبيلة وهي في الوقت ذاته الأعراف والتقاليد التي من حاد عنها حُيّد.

وإننا نرى في كلّ فئة مهمّشة بأية طريقة من طرائق التهميش، مواقف متضادّة فتتقسم الفئة بين مستكين خاضع راضٍ بواقعه و آخر متمرد رافضٍ للمنظومة المتعارف عليها، وهذا ينطبق على فئة الصعاليك الذين برز منهم شعراء نظموا قصائد تنبض بالواقع الذي عاشوه وتمكنا من تتبّع تجليات التهميش وفضاءاته

حُكم على الصعاليك بالفقر ونُبدوا على إثر هذا الحكم وغيره، فنرى أشعارهم تضحُّ بالحديث عن الجوع والحرمان، فقد تكالبت عليهم قسوة الصحراء وصلابة النظام الإقطاعي في أرض الجزيرة العربية وعصر الحياة القبلية الجاهلية، فاندفع نفرٌ منهم يطلبُ ما يسدُّ به رمق الأكباد الجائعة، يقول تأبّطُ شراً واصفاً التصاق أمعائه من الجوع:

قليل ادّخار الزاد إلا تعلقة فقد نشر الشرسوف والتصق المعاء¹¹

أمام هذا الوضع لم يجد الصعاليك إلا أن يشقّوا طريقهم وينتزعوا لقمة عيشهم دون أن يبالوا في سبيل غايتهم إذا ما كانت وسائلهم مشروعة أم لا، فالغاية عندهم تبرّر الوسيلة، فتراهم يترصّون بالأغنياء الأشحّاء ويغيرون عليهم من مراقبهم ليلاً، فهذا الشنفرى يصف خروجه مع جماعة من الصعاليك الذين لا سند لهم إلا أنفسهم يقول:

خرجنا فلم نعهد وقلّت وصاتنا ثمانية ما بعدها متعتّب

سراحينُ فتیان كأن وجوههم مصابيحُ أولونٌ من الماء مُذهب

لا يخفى أنّ الشنفرى يقول بشكل أو بآخر إنّ على الصعلوك أن يتحرّك ولا يرضى بواقعه ولا بدّله، فهو منفيّ مقصّي لن تتكفّل به قبيلة ولن يشعر بمصابه إلا المصاب، فهو يمتدح الصعلوك الذي أدرك هذه الحقيقة وخرج معه، ونجدُ مثلَ هذه المعاني لدى عروة بن الورد إذ عقد موازنة بين طائفتين من الصعاليك إحداهما تقنات على بقايا الأغنياء والأخرى تأبى إلا أن ترد الماء قبل الجميع، إنها فلسفة تلك الحياة من يشرب الماء عكراً ومن يشربه صافياً، يقول عروة:

لحا الله صعلوكاً إذا جنّ ليله مصافي المشاش ألفاً كلّ مجزر

يعدّ الغنى من نفسه كلّ ليلةٍ أصاب قراها من صديق موسر

لكنّ صعلوكاً صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور

مطلّاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر¹²

إنّ المسألة لم تكن جوعاً وحسب بل كانت صراعاً بين الحياة والموت، أصبح الأمر يمسّ الحَيوات حياة الجسد وحياة النفس وكبريائها فالصبر على الجوع شيمة اعتزّ بها الصعلوك وترددت كثيراً في شعره، يقول الشنفرى في لاميته:

أديمٌ مطال الجوع حتى أميته وأضربُ عنه الذكّر صفحاً فأذهل¹³

فالباعث على الصعلكة أمرٌ أكبرُ من الجوع، إنها النفس الأبية التي رفضت التبدُّ والنظرة الدونيّة فأرادت أن تغتني لتخرج من طبقة المهانين اجتماعياً، يقول عروة:

ذريني للغنى أسعى فإنّي رأيتُ النَّاسَ شرَّهم الفقيرُ¹⁴

وقد جاء في كتاب خليف، أنّ سعي الصعلوك إلى الغنى كان نتيجة لعقدة نفسية هي الفقر¹⁵، وإني أذهب مذهبا آخر وهو أنّ من لديه عقدة فقر ويسعى إلى الغنى فيغتني، فإنه سيضنّ بماله وأشياءه خوفاً من من العودة إلى حال الفقر التي كان عليها، وإن لم يضمنْ فسيبدّخر إلا أننا نرى الصعاليك يغيرون ويغنمون فلا يبخلون بل يوزعون ما جمعوه بالتساوي، وهم يرون أنّهم لا يأخذون إلا حقهم المستلب الذي حرموا منه فنهضوا لاسترجاعه بطريقتهم، فالمسألة ليست سعياً إلى الغنى بقدر ما هي انتزاع الحقِّ ممّن نصّب نفسه في المركز وقرّر أنّه السيّد وما دونه العبيد، فالصعاليك أصحاب قضية لا أبناء عُقد، إنهم يريدون أن يكون النَّاس سواسية، فإن هم طلبوا الغنى فلم يكن ذلك إلا للبدل والعطاء وقضاء الحقوق واكتساب المحامد، ولا يبالون بالموت في سبيل قضيتهم ومبادئهم، فتراهم يهبّون مؤمنين بأنّ الموت محتوم على من يخاطر بنفسه ومن لا يخاطر، يقول تأبطاً شراً:

وإنّي وإن عمّرتُ أعلمُ أنني سألقى سنانَ الموتِ يبرق أصلعاً¹⁶

وتذهب بنت الشاطئ إلى أن استهانة هؤلاء بالموت لم تكن من باب الشجاعة والإقدام وحسب بل إن هذا السلوك يطوي تحته سخرية مريّة بالحرية الفردية وشعوراً عميقاً بالتمزّق والضياع¹⁷.

إنّ الصعاليك حين أقصتهم قبائلهم وحين قررت فئة منهم أن تحترف هذه المهنة خرجوا بذلك عن المركز سلطة القبيلة، وتمثل هذا الخروج برفض المنظومة السائدة في قبائلهم وبالتالي إبعاد سادة القبيلة لهم فمن يخالف السلطة لا يبقى، إمّا أن تخضع لتبقيك على

أرضها أو ترفض فتنتفيك بشكلٍ أو بآخر، فالموطن الجديد للصعلوك هو المنفى بين مهالك الصحراء حيث يعيش عزلته و غربته، فالصعلوك لم يولد هكذا وإنما كان فرداً من قبيلة ينتهي إليها ويتعصّب لها، بينهما عقد اجتماعي قوامه النصره والحماية والعون، فلما انفصل عنها عاش عزلةً نفسيّةً يمكن التعبير عنها ب (قلق الانتماء) و (تصدّع الأصرة القبلية)¹⁸ ففي حياة العزلة يبدأ الصعاليك بمرحلة وسط بين الانتماء والخروج وابدؤون بتقسيم الهوية الاجتماعية وتشكيل الذات المستقلة عن المجتمع الذي غدا آخراً، فهم في هذه المرحلة يعيشون صراعاً نفسياً وكأنّ لسان حالهم يقول: كيف يمكنني أن انفصل عن (الذات الأم) وأجعلها آخراً، ليس الأمر سهلاً ولكن لما كانت هذه الأمّ تنبذ أبناءها وتحرمهم من حقوقهم فلم يكن بدّ من الانفصال عنها وحلّ عقودها، يصوّر لنا السليك بن السلكة جانباً من الحيف الواقع به يقول:

أشاب الرأس أني كلّ يوم
أرى لي خالة وسط الرجال
يشقّ عليّ أن يلقين ضيماً
ويعجز عن تخلصهنّ مالي¹⁹

وتكثر الأخبار عن تحقير القبيلة للصعلوك قبل احترافه لهذه المهنة، فمن صور هذا التحقير أن تتخلّى القبيلة عنه فتجعله معرضة للخطر ولا تكلف نفسها عناء فدائه، فالشاعر الصعلوك قيس بن الحدادية أسرته إحدى القبائل وطلبت من قومه فدية فأخبر الأسر أنه لا يساوي عند قومه (عزراً جرباءً جذماً)²⁰ فهذه أسباب تدعو إلى العزلة وأن تنعزل يعني أن تذوق مرّ الغربة فلا الأرض أمك ولا القبيلة والدك، ومع ذلك حاول الصعاليك أن يجدوا لهم أرضاً بديلة ومكاناً يعوضهم عن المكان الذي خرجوا منه، فما المكان إلا "الفسحة التي تحتضن عمليات التفاعل بين الآثار والعالم"²¹ وإنّ علاقة الصعلوك مع المكان هي علاقة قائمة على التقابل بين التكامل والتضاد، فهم في جدلٍ دائمٍ مع المكان إذ إنّه من ناحية، الحضن البديل الذي ضمّهم ومن ناحية أخرى هو

المكان الموحش البعيد عن الأحبة، هو المنفى والوطن الجديد ولم يكن أمام الصعلوك إلا أن يتقبّل الواقع ويعمل على رسم خريطة له في هذه الصحراء وجعلها وطنه الذي يسود فيه ويشعر بالحرية و"هذه الحرية في أكثر صورها البدائية هي حرية الحركة"²² فالصحراء في حياة الثائر هي الوطن والملاجئ والمفرّ، والصعلوك اهتمّ باختيار مكانه فيها بحيث يتيح له هذا المكان ممارسة النشاط المضاد للنظام القبلي ونجاح الهجوم والدفاع، ولعلّ أفضل هذه المواقع هي المراقب²³ فالمرقبة مكان حصين شاهق، تحقق للصعلوك أغراضها منها مراقبة الطريق ورؤية السائرين من حيث لا يرونه واللجوء إلى هذا الحصن المنيع الذي من يحاول الوصول إليه من الأعداء فنصيبه سهم يصرعه، يقول الشنفرى في وصف مرقبته:

ومرقبة عيطاء يقصردونها أخو الضرورة الرجل الخفيف المشفف

نميت إلى أعلا ذراها وقد دنا من الليل ملتف الحديقة أسدف

وهذا تأبط شرا أيضاً يصف مرقبته بسنان الرمح يقول:

وقلة كسنان الرمح بارزة ضحيانة في شهور الصيف محراق²⁴

نستشفّ من حديث الشعراء عن مراقبهم أنهم يخلعون عليها أوصافاً تجعلنا نشعر أنّهم يتحدّثون عن شخص يحممهم فهي الشاهقة التي لا تضمّ سواهم وهي الرمح الذي يذود عنهم، فإن الصعلوك لما فقد مثل هذه الحماية في قبيلته حاول أن يجدّ معادلاً في الصحراء يلجأ إليه ويستشعر حمايته، فالصحراء وما فيها من مراقب ليست مكاناً بيئياً فحسب لو كانت كذلك لما أسهب الصعلوك في وصفها، فهي تحمل دلالات رمزية عميقة لا يحملها مكان آخر، فهي الأمّ التي لم تقسّ إلا لتحنّ فأنتجت رجالاً يملكون من الصفات المادية والمعنوية ما يعينهم على شظف الحياة فهم عدّاؤون من طراز رفيع فحرفتهم تتطلّب هذه المهارة، يقول أبو خراش الهذليّ واصفاً نجاة ابنه من مطارديه:

كأنهم يشبثون بطائرٍ خفيف المشاش عظمه غير ذي نحض²⁵

وإنهم يتمتعون بقوة الإرادة والإقدام والصبر²⁶، فهاته الخصال تمكنهم من مواجهة المواقف الصعبة في حياة محفوفة بالمخاطر والكمائن.

وربما نتنبه لأمر آخر هو أنّ الصعلوك اختار المراقب العالية الشامخة تعبيراً عن تساميه وعلوه وأته في هذه المكان البديل سيكون سيّد نفسه سيخلق مع إخوته الصعاليك منظومة قيمية تنقطع عن منظومة قبيلته التي همّشته ونظرت إليه نظرة دونية فهذه محاولة لامتلاك المكان وخلق فضاء جديد كردّة فعل على الخلع والتشرد، فهذا المهمّش تمرّد على كثير من إملاءات المركز ومنها القيم التي صنعها القوي لتعزيز مكانته، فالصعلوك وقف من قيم المركز موقف المصطفي المختار فرفض ما شاء وعدّل بما يتناسب مع ظروفه ورؤيته، فمن القيم التي تبنتها حركة الصعلكة مثلاً: بطولة الفرار، فالفرار من المثالب في ذاكرة المركز الجمعية إلا أنّ الصعلوك يجعله مجالاً للفخر وسلاحاً يُهك به جسد القبيلة وخاصة حين تنتهي المطاردة بنجاته يقول الأعلم الهذليّ يتباهي بفروسية الفرار:

فلا وأبيك لا ينجونجائي غداة لقيتهم بعض الرجال²⁷

ومن ذلك أيضاً أن الصعاليك عملوا على إثبات شرعية مهنتهم فهم ليسوا أولئك الفقراء اللصوص كما تنعتهم السلطة، وإنما هم من سيجلبون حقهم وحق أمثالهم وسيعملون على تحطيم الطبقة فرفعوا شعار الاشتراكية وسعوا إلى تحقيق المساواة، يقول عروة:

وإني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحد²⁸

إذا: نرى أن الصعلوك كوّن قيماً جديدة نابعة من ظروفه ولم يكن له ذلك لولا أنّه كوّن مجتمعاً بديلاً، فلا وجود لأيّ مجتمع بلا قيم تنشأ من وجود حاجات معينة.

والصعلوك عمل على إيجاد معادلات موضوعية في هذا المكان البديل تغنيه أو تخفف عنه شعور البعد عن مسقط رأسه، فوحوش الصحراء من ضباع وذئاب التي هي مصدر خوف لا نجدها عند الصعاليك كذلك، بل نجدهم يأمنون بها ويمتدحونها ويرون جوارها أمراً عادياً، فهي محاولة للتكيّف مع هذه الوحوش التي تشاركونهم آلام البيئة وأمالها، فهم يسقطون معاناتهم عليها من ناحية، ومن ناحية أخرى يعدّونها بديلاً عن الأهل والأصدقاء والجوار، يقول الشنفرى:

ولي دونكم أهلون سيد عملس وأرقت زهلول وعرفاء جبال
هم الأهل لا مستودع السرّ ذائع لديهم ولا الجاني بما جرّ يُخذل²⁹

ونجد مثل هذه المعاني لدى عبيد بن أيوب، يقول:

وحالفت الوحوش وحالفتني بقرب عهدهنّ وبالبعاد

إنّ الصعاليك يمتدحون وحوش الصحراء في حين أنها كانت مصدر قلق في الفكر الجمعي لقبائلهم، وفي هذا إشارة إلى أنّ الصعلوك انقطع عن قبيلته فهو بالتالي ينقطع عن المتعارف عليه في القصيدة العربية تلك القصيدة التي كانت قصيدة سلطة تمجّد القبيلة وتحتفي بها، والصعلوك لا يؤمن بأي سلطان من أي نوع، وعليه فإنّ شعراءهم نظموا شعراً تميّز بخصائص لعلّ أبرزها أنّه لم يكن شعر سلطة " فشعر الصعلوك للمرة الأولى في تاريخ الشعر العربي، يلغي الوحدة الاجتماعية الاقتصادية السياسية التي تتشكل ضمنها الرؤيا المركزية، أي القبيلة، ويطوّر نظاماً ولهجة شعرية جديدة تتشكل في إطار طبقة اجتماعية محددة"³⁰ وهذا أمر طبيعي ناتج عن تهميش القبيلة للصعاليك فهم بالتالي همّشوها بكلّ ما فيها وتمردوا عليها، وربما التحرر من المقدمة الطللية والاستعاضة عنها ب (المقدمة الفروسية)³¹ يعدّ صورة من هذا التمرد، وفي هذه المقدمات يبدأ الشعراء بذكر المرأة المحبة الحريصة على فارسها الذي لا يأبه بالمخاطر، من ذلك مثلاً استهلال

عمرو بن بركة لقصيدته الميمية، حيث يعجب فيها من نصيحة محبوبه بتجنّب المخاطر وهو يرى نفسه صعلوكا وهب حياته للبطولة والمغامرة، يقول:

تقول سليبي لا تعرض لتلفةٍ وليك عن ليل الصعاليكِ نائمٌ

وكيف ينام الليل من جلّ ماله حسامٌ كلون الملح أبيض صارمٌ

ربما يمكننا أن نقول: إنّ التحرر من المقدّمة الطللية ينمّ عن أمرين: أحدهما التخلص من جزء من ثقافة القبيلة، والآخر أنّ طبيعة الحياة التي عاشها الصعاليك كانت تستلزم طبيعة شعرية تتوافق مع واقعهم.

نخلص مما سبق إلى القول بأنّ: التهميش في سياق المجتمع الجاهليّ تمثّل بالنبذ والخلع والإقصاء لدواعٍ نابعة من حياة ذلك العصر، وإنّ المهتمّش الذي تمثّل بالصعلوك خاض رحلةً لإثبات كيانه؛ فكان النواة التي ضمّت حولها المنبوذين من أبناء القبائل وسعت إلى مناهضة الحيف وإيجاد الحلول والبدائل، فأفلحت في تكوين طليعة لها رؤيتها وفلسفها الخاصّة.

وبعد، فإنه يمكننا أن نختم هذه الورقة بجملة من الأسئلة التي سندعى للبحث عنها، وهي: هل يدخل الشعر الذي أنتجته القريحة الشعرية الصعلوكية في مضمار أدب الهامش أم أدب المركز؟ هل كان التابع حين تحدّث طلائعياً أم مارقاً؟ هل يمكن للتهميش أن يحمل في طياته جوانب إيجابية؟ وما التطور الذي طرأ على مفهوم التهميش في العصر الحديث؟ وما تجلياته في الأدب الحديث والمعاصر؟

الهوامش:

- 1 - ابن منظور، لسان العرب. (بيروت، دار صادر، ط3، 1414) 365/6.
- 2 - الفيروز أبادي، القاموس المحيط. (بيروت، دار الكتب العلمية، 1999) 283/1.
- 3 - عبد الرحمن ترماسين و صورية جيخ، إشكالية المركز والهامش في الأدب. (الجزائر، جامعة بسكرة، مجلة المخبر، ع10، 2014) ص31.
- 4 - عادل إبراهيم شالوكا، حول مفهوم التهميش وأشكاله. (السودان، صحيفة الراكوبة) <https://www.alrakoba.net/articles-action-show-id-23330.htm>
- 5 - أديتيا أنوبكومار، مفهوم الإقصاء. ترجمة: بثينة إبراهيم، (مجلة حكمة، 2016) info@hekmah.org
- 6 - سعاد العنزي، المهمشون في الأدب. (الكويت، صحيفة الراي، العدد 12540، 2013/10/31).
- 7 - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، 456/10.
- 8 - أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، (دارنهضة مصر) ص 565
- 9 - يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، (القاهرة، دار المعارف، ط3) ص25
- 10 - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي- (القاهرة، دار المعارف، ط18) ص 375
- 11 - المرزوقي، شرح ديوان الحماسة. (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2003) 351
- 12 - التبريزي، شرح ديوان الحماسة. (بيروت، دار القلم، دت) ص160.
- 13 - رزق الله شيخو، مجاني الأدب في حدائق العرب. (بيروت، مطبعة اليسوعيين، 1913) 202 /6.
- 14 - عروة بن الورد، ديوانه. تحقيق: أسماء محمد، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1998) ص198
- 15 - يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، مرجع سابق ص32
- 16 - المرزوقي، شرح ديوان الحماسة. مرجع سابق، ص 353.
- 17 - عائشة عبد الرحمن، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر. (القاهرة، دار المعارف، ط2) ص 42.
- 18 - عبد الله تريس، ثنائية الأنا والآخر. (مجلة التراث العربي، دمشق، العدد 121، 2016) ص 82.
- 19 - سعدي الضناوي، ديوان السليك بن السلكة. (بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1994) ص89.
- 20 - - يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص 33.
- 21 - حسين الدخيلي، الفضاء الشعري عند الشعراء اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي. (عمان، دار الحامد، ط1،

2011) ص 12.

- 22 - غاستون باشلار، جماليات المكان. ترجمة: غالب هلسا، (بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط6، 2006) ص62
- 23 - عبد الحليم حفي، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987) ص 241
- 24 - المفضل الضبي، المفضليات. تحقيق: عبد السلام هارون آخرون. (القاهرة، دار المعارف، ط6) ص 29.
- 25 - محمد الشنقيطي، ديوان الهذليين. (القاهرة، الدار القومية للنشر، 1965) 159/2.
- 26 - حفي، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، مرجع سابق، 258.
- 27 - صغير العززي، رؤية العالم في شعر الصعاليك حتى نهاية القرن الثالث الهجري. (السعودية، جامعة أم القرى، رسالة دكتوراه)
- انظر من ص 296-309.
- 28 - الحفي، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه. مرجع سابق، انظر من ص 344-346.
- 29 - رزق الله، مجاني الأدب في حدائق العرب. مرجع سابق، ص 203.
- 30 - كمال أبو ديب، الرؤى المقتنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص575.
- 31- حفي، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، مرجع سابق، ص271.